

أزمة الانتاج

الكتابي لـــدى النساء الفلسطينيات

- . . .
- • •
- . . .



فلسطين وأهلها

أزمة الانتاج الكتابي لدى النساء الفلسطينيات



قــد تبدو الكتابة في موضوع كمذا سملة وواضحة كإجابات معظم النساء المتعلمات اللواتي تحدثت معمن واللاتي يسارعن للتعذر بالوقت والمسؤوليات العائلية وأحيانا العمل، أو إجــــابات_ أخرى ربما تكون أكثر صدقا مع النفس كأن تجيب بعضمـــن بـ: "ما بعرف أكتب" أو "عن شو بدي أكتب" أو "وين بدى أنشر"...

غير أن تلك النظرات الحائرة وأحيانًا المستغربــــة، والتي كانت تسبق إجابات أغلب النساء اللواتي قابلتهن، جعلتني أشعر وكأن سؤالي مستهجن، وكَأنهُن يسألن: "وَلَمَاذا أَكْتَب أَسَاساً؟" تجيّبنيّ إحداهن:"أنا معلمة أدرس الأطفال"، وأخرى:"أنا طبية أعالج المرضى"،وأخريات يجبن بأنهن تخرجنّ وتزوجن وأنهن الآن يربين الأطفال ..ف"أين موضع سؤالك وما معناه؟"،وأجيبهن أنا: "أوليست الكتابة جزءاً متمما لعملك، منظمًا لأفكارك، معممًا لتجربتك، مساهمًا في رقى مجتمعك".. ذلك الجمود الذى استوقفني جعلني أتساعل إن كان الإنتاج الكتابي¹ لخريجات الــــــــدراسات العليا وطالباتها في الجاّمعات الفلسّطينية أفضل حالاً ؟ وهنا أنبه بأن ورّقتي هذه ليست في مقـــام البحث الكميّ لأعتمد في حجتي وتحليلي على الأرقام والإحصاءات التي يُصعب الحصول عليها، غير أنى استطعت أن أرسم تصوراً ما، بعد مقابلتي لعدد من طالبات الماجستير والدكتوراه، واللواتـــى ت يكن لمن أي مساهمه كتابية، فسألتمنّ عن أعداد الطلبة الإجمالي في دفعتمــن، وأعــدادـّ الطلبة الذين لهم مساهمات كتابية، فوجدت الأمر صادماً حقاً، فمن بين تُعداد طلاب بلــــــغ (إناثاً وذكوراً) ما بين 15-20، في كل دفعة تقريباً، كانت الإجابات أن هناك شخصاً واحداً لــــــه مساهمات كتابية! ورغم أنه لا يمكن تعميم هذه النتيجة، ولكن، ألا يمكــــن أن نستشف أن مناك مشكلة حقيقية تتمثل في وجود حاجز ما يمنع تحول الإنتاج المعرفي إلى ثقافة، حتى في المجتمع الأكاديمي نفسه، فالسَّوَّال هنا ما الدرجــــة العلمية التي ينتظرها هؤلاء المتعلمونّ لينطلقوا نحو الإنتاج المعرفى؟

ففي مقابلـــــة مع طالبة الماجستر (نمى. ق) بررت عدم خوضما لغمار الكتابة بصعوبة الأمر واحتياجه الى غزارة لغوية، وبأنما يعوزها التشجيع والإرشاد، فمي لا تعرف أين تنشر، وما مــي الجمة التي يجب أن تتوجه لما، كما تعذرت -من جمة أخرى- بضيق الوقــــــت والمسؤوليات العائلية، إلى جانب مماممـا الدراسية. وحين سألتما: "ألم تفكري بنشر أحد الأبحاث التي تنجزينما للمساقات؟ ردت بأنما فكرة جميلة ولكنما لم تخطر ببالما، وأن أياً من أساتذتمـــــا لم يطرح موضوع النشر سابقا".

عن إحجام المعلمات عن البحث

وفي دراسة سابقة كنت قد أعددتها بعنوان "متـــــى يغدو البحث العلمي ثقافة مجتمعية؟ دراسة في تعاطــــي معلمات المراحل العليا في المدارس الفلسطينية مع البحث العلمي"، قمت بعمل دراسة على عينة من المعلمات الباحثات وغير الباحثات في حينها -في المجمل فإن فئـــة المعلمات الباحثات في المدراس الفلسطينية هي فئة نادرة وأعدادها محدودة جداً- ، وبحثت في المساب التي قد تدفع إحداهن لتكون باحثة ولها مساهمات فكريــــــة بينما تحجم الأخريات، وتوصلت الدراسة الى عدم وجود فروقات و دلالية لها علاقة أبالتحصيل الأكاديمي للمعـــلمة الباحثة، (أي فروقات و بين حملة درجتي الماجستير والبكالوريوس)، أو فروقات واضحـــة بين من لديها مسؤوليات عائلية أو تلك المتفرغة، وتأثير ذلك المباشر على البحث العلمي أبينما أظهــرت الدراسة أرقاماً تدل على أن المعلمات الممارسات للبحث العلمي يملن إلى اعتبــــــــار هذا العامل (البحث العلمي) مساهماً في تطوير العملية التعليمية، وتطوير أدائمن "التعليمي الشخصي، فيما لا ترى غير الممارسات للبحث العلمي "من المعلمات أي علاقة بين البحث والتطوير.

وفي العموم، فقد أدت كل تلك الأسباب السابق ذكرها مجتمعة إلى الحيلولة دون تحول البحث العلمي لظاهرة ثقافية في المدرسة، وعزوف معظم المعلمات عن الخوض في غماره.

لذا فإن اختزال فعل الكتابة بشكله النهائي الذي يأتي علـــــى صورة حروف متراصة تفصل بينها فراغات تعرف على أنها كلمات تحمل دلالات ومعاني؛في الأسباب الظاهرة التي تحول دون تحول الكتابة إلى ظاهرة مجتمعية، لهو عمل منقوص سطحي. فالكتابة هي مخرج لعمليـــة طويلة معقدة يدخل في غمارها مجتمع بأكمله، فأنت لا تستطيع أن تطالب بذلك المخرج دون أن تنظـر لمدخلاتك، فالحرية والقراءة والفضاء الرحب والتعليم المتحرر وحب الذات وسمو الروح علــــــى المادة، هي مدخلات مهمة لتنتج كاتباً متصالحاً مع مجتمعه، وغير خائف على نفسه. فالكتابــة حالة انفعالية يلجأ إليها الفرد في محاولة لإعادة اكتشاف ذاته ومحيطه معا.

وفي هذا الإطار اختزلت د. نوار ثابت في مقابلة معها أسباب إحجام النساء المتعلمات عن الكتابة في عدة نقاط منها: قلة القراءة والمطالعة، وضعف القامــــوس اللغوي، والافتقار إلى الخط الناظم في الكتابة، وضعف عمليات إنتاج الباحثين في الجامعات وتأهيلهم، وانتشار آفة شـــراء الأبحاث ورسائل الماجستير والدكتوراه، وقلة المراكز البحثية، والمردود المادي المتدني، وأحــياناً المعدوم للعمل الكتابي. أما أخصائية التغذية آية قدح فرغم اقتناعها بأهمية الإنتاج الكتابــــي ووجود بعض الحالات التي تستفزها أحياناً للكتابة، فإن اقتناعها بضعف شريحة الجمهور الـــذي يقرأ يجعلما تختصر ما تريد قوله في منشورات بسيطة، تأتي عادةعلى شــــــكل بضعــة سطور وبخطوط عريضة، مع إضافة الكثير من الصور الجاذبة، وقد بينت أنها لا تمانع خوض غمار الكتابة إذا توافر جممور قارئ، ومنفعة مباشرة مترتبة على ذلك.

أما طالبة الدكتوراه (ن، ق)، والتي تؤجل فكرة الكتابة والنشر إلى ما بعد التخرج، فهــــي لا تنفي -إلى جانب كل الأسباب التي سبق ذكرها- أن هناك أسبابًا حقيقيةً تتعلق بالأعبـــــاء العائلية، وارتفاع نسبة خصوبة المرأة الفلسطينية نسبياً، والمسؤوليات المنزلية، وأحيانًا بعض الوصــاية الذكورية على المرأة، حتى وإن كانت المرأة عاملة ومتعلمة .

ولكن، وراء كل تلك الأسباب، ألا تقف أسباب أخرى تتعلق بهاجس الكتابة؟ خوف ٌ من نوع مــــا يجعلنا نحجم عندما نتعامل مع النص؟ ففي ثقافتنا مثل ي ُقال: "الحكي ببلاش"، بينما المكتوب قد يرهنك أو يجر ّ مك أو يجر ّ ك الى خانة الاعتراف، أو "يمسك عليك ممسكاً" كما يقولون، أي أن ّ النص يمكن أن يتحو ّ ل إلى مستند ٍ يستخدم ضدك. ولكن أليست الكتابة ُ فرصة أخرى لنعيد رسم الصورة التي نرتضيما لأنفسنا؟ صورة نصبو فيما للمثالية ونرجو من ورائمــــــا أن تبقى كلماتنا وحروفنا شواهد على ذواتنا في الأزمنة الممتدة، فمي سيـــــــف نشهره في وجه الموت بأننا خالدون، وفي وجه القمر والضعف بأننا قادرون؟

ولكن، ماذا عن خوفنا من الخطأ في الكتابة؟ أخطاء تتعلق بالأفكار أو الأحـــداث أو ضياع الخط الناظم مما يخرج النص ضعيفا ركيكا؟ وماذا لو لم نمتلك من حب ذواتنا ما يجعلنا قادرين علـــــى إعادة كتابتها بصورة أجمل وأكثر مثالية؟ وماذا لو كنا خائفين من المواجهة، مواجهة ذواتنا؟ لنختبئ ونتعذر بالأحداث اليومية والمشاغل العابرة لئلا نتواجه مع الأنا، فنقف أمامهــــــا عراةً متجردين من كل المكتسبات المادية، نسأل سؤال الإنسان الأول: من أنا؟ ولماذا أنا هـــنا؟ ماذا عن خوفنا بأن نبوح بشيء ما نخفيه عن ذواتنا قبل الآخرين؟ إذن سنكون كما قالـــــت بلقيس الكركي في كتابها "إرادة الكتابة": "قد خسرت مرتين: صورتك، وحياتك". وتتابع بأن "الخطــــــأ اليوميــة اليوميــة اليوميــة مي الأنمان الأخطاء اليوميــة في النماية ليســــــــت أخطاء حقا بل محض تفاصيل عابرة... أما الخطأ في الكتابة مو الأصعب، في النماية ليســـــــت أخطاء بالكتابة إذا كنت مؤلفًا جيدًا، لكن ماذا لو كان قرار الكتابة بحد ذاته خطأ ؟".

والخطأ في المجال العام للمرأة في ثقافتنا ممنوع، إذ إن المجتمع الفلسطيني لايزال يفضـــــل مجالات محددة يمكن للمرأة خوضما كعملما في سلك التعليم والممن الصحية والوظائــــف المكتبية. أما حين تقرر المرأة الخوض في فضاء أوسع فإن عين الرقيب تكون عليما أوسع، حتى المكتبية. أما حين تأتي لتمتدح امرأةلعمل ما فإنما تقول: "أخــــــت رجال"، أو "امرأة بألف رجل"، ورغم أن قيم الرجولة تجاوز الذكورة ولا تنحصر فيما، إلا أنما كذلك في المـــــوروث الشعبي، ومنما المثلان اللذان سقتهما واللذان يجعلان الرجولة محصورة في الذكورة. فالمرأة عليما أن تبذل أضعاف الجمد والمعاناة لتصل أولًا إلى مستوى الذكر ، وهو ما يتحصل عليــــه بشكل طبيعي فقط بسبب جنسه، وفي فلسطين يزيد الأمر تعقيداً بسبب الاحتلال والعوائــــق التي يفرضما على التنقل والسفر والمراقبة الدائمة بكل أدواته القمعية لأي حراك ثقافي يصنف على أنه وطنى؛ وهنا يزيد الخوف على المرأة من الاعتقال، فيتمثل إحجام آخر.

أخيراً، إن أزمة الإنتاج الكتابى أزمة مستفحلة تعانى منها مجتمعات العالم الثالث بشـــــكل عام رغم ارتفاع نسبة التعليم فَّى بعضما، غير أنه تعليَّم قهرى يمارس على المعلم والطـــالب على حد سواء، ترمى من خلاله الأنظمــــة المتسلطة إلى صُمر الأجيال الجديدة في بوتقة النظام السياسي والنشق الاجتماعي. هناك بالتأكيد حاجز بين النساء المتعلمات وعالم الإنتاج الفكـــري، لست متّأكدة ً من أن هذا سيتغير على الإطلاق. نتحدث عن تمكين المرأة وندعوها إلى خـــوضٌ عالم الكتابة، لكننا لا نوفر لما فرصًا كافية (الوقت/ الموارد) للقيام بذلك. حتى المؤسســــات النسوية التي والخطأ في المجال العام للمرأة في ثقافتنا ممنـــوع، إذ إن المجتمع الفلسطيني والوظائف المكتبية. أما حين تقرر المرأة الخوض في فضاء أوسع فإن عين الرقيب تكون عليهـــا أوسع، حتى أن أمثالنا الشعبية حين تأتى لتمتدح امرأة ۗ لعمل ما فإنها تقول: "أخت رجـــــال"، أو الموروث الشعبي، ومنها المثلان اللذان سقتهما واللذان يجعلان الرجولة محصورة في الذكورةُ. فالمرأة عليما أنّ تبذل أضعاف الجمد والمعاناة لتصل أولـ ا إلى مستوى الذكر ، ومو ما يتحصــلُ عليه بشكــــــل طبيعي فقط بسبب جنسه، وفي فلسطين يزيد الأمر تعقيدًا بسبب الاحتلال ثقافي يصنف على أنه وطنى؛ وهنا يزيد الخوف على المرأة من الاعتقال، فيتمثل إحجام آخَّر.

تشعر وكأنها تحرك البلاد، فإنها لا تقدم شيئاً إلا في إطار خدمة رؤيتهـــا التغريبية، بل وتقف عائقاً في وجه امرأة تبحث عن حرية فكرية دونما سطوة. ربما يتغير الوضع ببطء ولكن إلـــى أن يصبح ذلك واقعاً، أعتقد أن مفهوم الإنتاج الكتابي سيواجه صعوبة الكبيرة في طريق تحولـــه لثقافة مجتمعية لا تربط مذا الم َخرج بممنة محددة أو شريحة بعينها.